المحاضرة 01:

إشكالية الانتماء القومي للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

يقصد بالأدب الجزائري المكتب باللغة الفرنسية ذلك الأدب الذي أبدعه كتاب جزائريون قبل أثناء وبعد الثورة التحريرية، غير أنّ هذا الأدب لاتزال إشكالية انتمائه قائمة، وإذا ما كان الحديث عن هوية هذا الأدب أو عن قضية هويته الأدبية وجب الوقوف على مقاييس قومية يُعتمد عليها في تحديد هويته وهوية بعض الآداب، غير أنّ عدم وجود هكذا مقاييس ثابتة باعتبارها متباينة وواهية في ظل غياب منهج مضبوط يحدد خصائص وطباع كل أمة ودورها في العملية الإبداعية، لم يكن ليفك إشكالية انتماء هذا الأدب وتلك الآداب.

ومنه الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، إحدى القضايا المختلف عليها اختلافاً شديداً على الصعيد النظري في مجال الأدب المقارن. فقد عده البعض أدباً أوربياً باعتبار اللغة التي كتب بها. واعتبره آخرون أدباً قومياً أو أفريقياً باعتبار "الروح" التي كتب بها، والحقائق المحلية التي عبر عنها. وقد ذهب فريق آخر إلى القول بأنه أدب بلا هوية لا تصح نسبته إلى البلد الذي ينتمي إليه الكاتب، لأن ذلك الأدب غريب عنه لغة وقراء، كما لا تصح نسبته إلى البلد الذي تنتمي إليه لغة الكتابة لأنه غريب عنه واقعاً، وانتماء، ولا يربطه به أي رابط سوى رابطة اللغة التي كتب بها.

وواضح أن أصحاب الرأي الأول يلتقون في وجهة النظر مع مقولات مدرسة الأدب المقارن الفرنسية، التي لا ترسم الحدود القومية للآداب بالحدود السياسية ولكن بالحدود اللغوية.

وبالاستناد إلى مقولات هذه المدرسة يكون أي أدب يكتب باللغة الفرنسية مثلاً، أو الألمانية أو الإنجليزية. أدباً فرنسياً أو ألمانياً أو إنجليزياً وهلم جراً. وهكذا وبجرة قلم تلغي هذه المدرسة آداب أمم وشعوب برمتها مثل الأدب النمساوي. والاسترالي، والكوبي والأمريكي، والبرازيلي، لأن هذه الشعوب تتحدث لغات تنسب لشعوب وأمم أخرى، ناهيك بالأدب الهندي أو النيجيري أو المارتنيكي مثلاً المكتوب بالإنجليزية أو الفرنسية. أما أصحاب الرأي الثاني فواضح أنهم ينطلقون من المضامين القومية التي عبر عنها ذلك الأدب، ويلتقون إلى حد بعيد مع المدرسة الأمريكية. إذ إن ذلك الأدب حتى وإن كان أوربي اللغة فإنه يعبر في معظمه بصدق عن واقع الشعوب الأفريقية والآسيوية.

1/الرأي الجزائري والعربي:

نجد من النقاد والدارسين العرب من يعترف بعروبة هذا الأدب وانتمائه الوطني الجزائري على الرغم مما يحمله من ثقافة غربية، ومن تدوين لغوي أجنبي، منهم عبد الله الركيبي الذي صرّح بذلك في قوله: " وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، قد أوجد لظروف وأسباب في مرحلة معينة، وهو إن كتب بلغة أجنبية، فإنه عبر عن مضمون جزائري وواقع وطني الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا."

فإذا كان هذا القبول متأتيا من أحد الأدباء الجزائريين المدافعين بحماس عن عروبة الجزائر، و ضرورة الأخذ بالاعتبار هذه النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية فمن الغرابة بمكان أن يكون الرأي نقيضه صادرا عن دارس يحمل لواء العروبة نفسه مبررا موقفه بضرورة اعتماد هذه النصوص للحرف العربي، إذ نجد عبد المالك مرتاض يصرح قائلا : "إن هذا الأدب غريب في نفسه، و منفي عن موطنه الذي كتب فيه، و لم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة".

في ظل هذا الطرح المتباين، آثرنا الوقوف عند شخصية عربية أخرى رغبة منا في الاطلاع على ما خلفته هذه التجربة من مواقف إزاء الأدب المكتوب باللغة الأجنبية بعامة، والأدب الجزائري المكتوب بالحرف الأجنبي بخاصة هذا وبناء على تلميحاته الداعية إلى عدم إغفال الظاهرة اللغوية في تحقيق فعل الانتماء القومي للأدب الجزائري –وضرورة أخذ الوسيلة اللّغوية بعين الاعتبار في تحديد هوية النص الوطنية. وتتمثل هذه الشخصية في الشاعر العربي عبد المعطي حجازي الذي يوضح بـ "... أن الأدب لا ينسب للغة التي يكتب بها عندما تقول رواية مكتوبة بالفرنسية هي فرنسية يكتبها جزائري... مقدما فيها رؤيته للعالم نعم ولكنها فرنسية، مثل تماما الشعر العربي نصفه كتبه فرس ولكنه عربي بلغته، ومتى تصبح جزائرية إلا بعد أن تصبح الفرنسية لغة وطنية، المستقبل كما هو واضح بالعربية وبالرغم من أن الفرنسية لغة نافذة على اللغة العالمية...".

تذهب سعاد خضر إلى القول أنّه:" إذا كان الحديث يدور حول أدب باللغة العربية أو أدب باللغة الفرنسية أو أدب باللغة البربرية فلا يعني ذلك أنّ هناك آدابا منفصلة تتكلم بهذه اللغات، بل إنّ الأدب الجزائري يكون وحدة متكاملة ساعدت فئات الشعب المختلفة على خلقه، كما فرضت عليه الظروف الموضوعية الخاصة أن يستخدم كأداة للتعبير هذه اللغة أو تلك" توضح الكاتبة والناقدة في موضع آخر من مؤلفها (الأدب الجزائري المعاصر) أنّ وضعا شاذا نشأ لأنّ الفرنسيين حاربوا اللغة العربية وفرضوا الفرنسية التي أصبحت لغة التعبير" وهذا الواقع الشاذ بالذات حتّم على الفرنسية أن تلعب نفس الدور الذي كان على العربية أن تقوم به، وأصبحت لغة التعبير،...إنّ المشكلة كما أعتقد ليست بهذا الشكل المجرد، أي أنّها لغة دخيلة تقطع الجزائري عن ماضيه، وتبعده عن واقع أمته، بل إنني أعتقد أنّه ليست اللغة بقدر المضمون الذي يعبر عن هذه اللغة، هو الذي يحدد هذا البعد عن واقع الأمة، أو التعلق بواقع وحقيقة هذه الأمة"

لعل ما يلاحظ على هذه الآراء. هو الاختلاف حول ظاهرة الانتماء، أو بالأحرى التباين في التحديد النظري للمقياس الموضوعي، الذي نستطيع على أساسه كسر الحواجز بين الدارس والمبدع، وبالتالي إيجاد منهج ما يسمى بالمقاربة وإسقاطه على الموضوع لإزاحة هذه الضبابية التي تشوب هذه الإشكالية.

2/الرأي الغربي:

ما من شك أن هوية الأدب المكتوب باللغة الفرنسية قد وقف عليها الدارسين والنقاد الغرب كما فعل العرب، وسنحاول رصد آراء بعضهم من خلال بحوثهم وكتاباتهم في هذا المجال نبتدأ مع **Raymond Queneau**، مرورا بـ **Charles Bonn** و **Jean Dejeux**، وصولا إلى **Jaqueline Arnaud**.

يمكن الاطلاع على رأي" **R. Queneau** " من خلال مصنفه "Histoire des littératures" في جزئه الثالث و هو جزء يحتوي على الأدب الفرنسي أو ما يعرف بـ"Les belles lettres" و الأدب الملحق "Littérature connexe" و الأدب الهامشي."Littératures marginales" إذ يخصص لأدب شمال إفريقيا جزءًا ضمن الأدب الملحق مما ينبئ بانتمائية هذا الأدب إلى الأدب الفرنسي مادام الباحث عمل على تصنيفه ضمن الأدب الفرنسي، و إلحاقه به، غير أنه ما يمكن ملاحظته في الجزء3 أنّ الباحث قد صنف أدب شمال إفريقيا – المكتوب باللغة الفرنسية – بما فيه الأدب الجزائري ضمن الأدب الملحق إلى جانب الأدب الهامشي، و يتكون الجزء الخاص بالأدب الملحق من 300 صفحة مع العلم أن المؤلف يحتوي على 2055 ص تقريبا فإذا كان أدب شمال إفريقيا – المكتوب بالفرنسية ينتسب إلى الأدب الفرنسي كما زعم المؤلف فلماذا صنفت هذه النصوص ضمن الأدب الملحق، و الأدب المشكوك في أدبيته كأدب الأطفال، و الرواية البوليسية في آخر المؤلف ؟ ولماذا لم يصنفها إلى جانب الأدب الفرنسي الخاص بـ "Les belles lettres".

في حين نجد أن " **Charles Bonn**" الذي عمل على تصنيف هذا الأدب المكتوب باللغة الفرنسية – على أنه مزدوج الهوية لكونه يحمل في جوفه الهوية الأوربية، في الوقت ذاته الذي يحمل فيه الهوية العربية ولكونه قد تغذى من الثقافتين، الغربية والعربية في آن معا، و لا يستطيع تحديد الأولى إلا بالثانية غير أن الحضور الأيديولوجي هو الذي يحتم عليه تحديد قوميته أو هويته العربية الجزائرية دون الإشارة إلى اللغة، و هذا التحديد لا يمكن أن يكون له أي معنى إلا في حضور العنصر الأجنبي المتمثل في اللغة و الثقافة العربية.

أما " **Jean Dejeux**" فيخالف الرأي السابق، في كون أن الأدب المغربي –ذا اللسان الأجنبي –لا يخرج عن دائرة الكتاب المغاربة، على الرغم من تشبعه بالثقافة الغربية، و مما يزيد رأيه ثبوتا تصريحه بـ "سيظل الكاتب المغربي باللغة الفرنسية يمثل مغرب اليوم في ثقافته و تحولاته، و تساؤلاته على الرغم من كونه يحمل البصمة الأجنبية في كتاباته".

هكذا يدرج " **Jean Dejeux** " الأدب الجزائري وفق الأدب المغاربي معترفا بهويته المغاربية، المعبرة عن مضامينه الحاملة للروح العربية المغاربية، والتي لا يجب إغفالها في إثبات هويته.

تقف الدارسة "**J. ARNAUD**" في الصف ذاته مع "**C. BONN**" في نظرتها إلى هذا الأدب، في اعتبارها أن الأدباء المغاربة –ذوي اللسان الأجنبي –بما أنهم يشتغلون في الحقل نفسه الذي نعمل، فهم أقرب منا إلى الكتاب العرب المعاصرين أمثال طه حسين، وتوفيق الحكيم والطيب صالح.

نتبين من خلال هذا التلميح أن الباحثة " **ARNAUD**" قد عملت على إدماج الأدب الجزائري ذي اللسان الأجنبي ضمن الأدب العربي المعاصر، وهذا لكون أن هؤلاء الأدباء –الجزائريين–يشبهون إلى حد كبير الأدباء العرب، يجمعهم في ذلك الطابع العربي بما في ذلك التقاليد الفنية العربية، والتي لا نلقى لها صدى عند الكتاب الأجانب، وبالتالي يظل عنصر اللغة وغيره من العناصر التاريخية والطباعية غير كافية لإلحاق هذا الأدب بالأدب الأجنبي وتغريبه عن موطنه وأصالته.

إذا كانت آراء بعض الدارسين السابقين اتسمت بالتوفيقية إلى حد غير بعيد، فإن بعضهم يكاد يميل إلى آراء بعض الدارسين العرب في نظرتهم إلى هذه الروايات الجزائرية في قولهم إنها روايات عربية مترجمة إلى الفرنسية لأنها كانت تحمل بصدق آلام هذا الشعب فمن العيب ضرب هذه الإنجازات الأدبية التي أوصلت قضية الجزائر خارج حدود المحلية

إن المتتبع لآراء النقاد الغربيين يتبين أنهم يستندون في مجمل آرائهم على ثنائية الانتماء الوطني لهذه النصوص مؤسسين رؤيتهم حول قضية الانتماء الأوروبي، والعربي للنص المكتوب باللغة الأجنبية، ويرتد ذلك إلى عدة عوامل من بينها عامل الثقافة الغربية، والعربية المعتمدة من قبل الكتاب.

على أية حال، نحن من جهتنا. وإن اختلفنا في مسألة إن كان أدبنا المكتوب بالفرنسية أدباً قومياً أم لا. فإننا لا نختلف في كونه جزائرياً، لا سيما أنه ارتبط في مرحلة من مراحل تاريخنا —كما ألمحنا من قبل–بالمقاومة الوطنية والكفاح المسلح، وهذا جانب مهم جداً ليس من السهل التفريط فيه تماشياً مع مقولات نظرية في الأدب المقارن، لا تخلو في نهاية الأمر. من خلفيات قومية، ودوافع غير علمية، ويصدق هذا القول على المدرسة الفرنسية أو الأمريكية على السواء.